القسم الثالث

نشوء أمة الإسلام

ثلاثة وعشرون عاماً قمرياً من بدء نزول الوحي في غار حراء إلى وفاة الرسول ﷺ وجدت أمة الإسلام . ابتدأ التنزيل باقرأ وانتهى باكتماله : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣] وهذه الأمة التي صاغها الرسول ﷺ بتوجيهات الله تعالى وإرادته وكيف شاء ، فإنها تميزت عن سواها بالكثير مما تحدثنا عنه ، وبالكثير مما لم نتحدث عنه ، لقد طالت الفترة الأولى " فترة إعداد الرجال " وكان ثمرها عدد لم يتجاوز الآلاف على كل حال إذ لم يصل إلى هذا الحد ، وكان فترة انكسار وصبر وتحمل عذاب من أصحاب السيادة والقرار في مكة ، وكان هو الشغل الشاغل للذين آمنوا ، ولم يخاطبهم الله تعالى مباشرة ، فلم يكونوا قد تميزوا كثيراً عن مجتمعهم .

لم تكن التكاليف قد توالت بعد الصلاة،وهي فقط الأمر الأوحد من العبادات الذي نزل في مكة . وكانت القضية الوصول إلى أمور خطيرة في حياة الناس أهمها وأشدها هو الانسلاخ الكامل عن الجاهلية،والدخول الكامل في الإسلام، حتى يستطيع الناس المفاصلة أن يكون المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ؛وكل الروابط التي كانت مشدودة قبل التميز يجب أن تقطع ، إلا ما كان من حب لابن لو يؤمن أبوه،وأب يحب لابنه أن يؤمن،وأخ يسعى وراء أخيه ليؤمن، وقريب وحبيب ، ولكن لما لم يتمكن هؤلاء المسلمون من جلب أحبابهم من أبنائهم وآبائهم وإخوانهم حصلت المفاصلة بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)**﴾ [التوبة].

لقد كان العهد المكي هو الأساس الذي نربى به الرجال الذين سيقومون بما يسر الله لهم جميعاً مجاهدون ابتداء ، ومنهم القائد ، ومنهم العالم ، ومنهم السياسي ، ومنهم الاقتصادي ، ومنهم المزارع ، ومنهم التاجر ، كل ميسر لما خلق له ، جاء العهد المدني الذي كان أقصر وأكثر فعالية وتحرك من العهد المكي . فالذين آمنوا في مكة وبعدها خاطبهم الله تعالى في العهد المدني بخمس وثمانين نداء .. " يا أيها الذين آمنوا .." وهم الذين استوت عندهم التكاليف ، فهي الإجابة والاستجابة والتنفيذ كل في موقعه ، دون أن ينظر أحدهم لما كلف به أخوه أو طلبه لنفسه ، بل

إنهم في أمور الدنيا كان كل منهم يدفعها عن نفسه ، وفي أمور الآخرة كان كل منهم يطلبها لنفسه .

" جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ما عرف الأنصار ابناً أبر بأبيه مني ، وعلمت أنه قد خان الله ورسوله ، فخشيت أن يقتله أحد من المسلمين ، فلا أستطيع أن أرى القاتل يمشي على الأرض فأقتله فأدخل النار ، يا رسول الله إن كنت تحب أن آتيك برأس عبد الله بن أبي فأمرني بذلك ، فوالله إنه لأحب إلي أن لا يقتله أحد غيري .. ولكن الرسول ﷺ تلطف به وبابنه وقال : لا .. بل نحسن صحبته " .

إن العهد المدني على قصره ؛ والأحداث الجسام العظام التي كانت فيه ، كان أخطر وأكبر ولكنه كان هو البناء ؛ فيه التشريع ، فيه النظام ، فيه الجهاد ، فيه كثرة العبادات ، .. الصيام والزكاة والحج ، البعد عن الفواحش والخمر والميسر والأنصاب والأزلام .. البراءة من المشركين ، فيه نزلت سورة براءة .. وفيه نزلت سورة الأنفال .. وفيه كل السور المدنية التي أعطت أمة الإسلام وجهها ؛ الذي جعل الخيرية فيها دون غيرها من اتباع الأنبياء من الحواريين ، ومن قبل أتباع موسى وأتباع سليمان وأتباع إبراهيم .. فقط هم الذين نالوا ذلك وليَعيَ المسلمون عظمة موقعهم ، وعظمة الدور الكبير الذي أراده الله لهم في هذه الدنيا .. نعم تكونت أمة الإسلام في مدينة محيطها لا يتجاوز محيط قرية من القرى الصغيرة في أي بلد من أرض الإسلام ، وسكانها لا يتجاوزون بحال خمسة آلاف إذ إن المسلمين قد خرج منهم لأُحُد ألف مقاتل انكفأ عنهم ثلاثمائة منافق ، وكان التنامي كبيراً في هذه المدينة بالتوالد بعد أن نظم الإسلام العلاقات الزوجية ، وخلص المجتمع المسلم من سفاح الجاهلية ، وبالمهاجرين الذين يتوافدون عليها من مكة أولاً ، ومن ثم من جميع المناطق التي أسلم بعض أفرادها ولحقوا بالرسول ﷺ . تمكنت هذه المدينة أن تجيش عشرة آلاف مقاتل لفتح مكة بعد ست سنوات من بدر حيث جند المسلمون ٣١٧ ...[1] رجلاً وقريش ١١٠٠ مقاتل في بدر ، ولم تتمكن قريش بعد أن دخلت بالإسلام من المشاركة بأكثر من ٢٠٠٠ رجل في غزوة حنين ؛ حيث اعتبرت هي الأكثر تجيشاً في جزيرة العرب حتى ذلك التاريخ، وتمكن المسلمون أن يجيشوا قرابة ٤٠ ألفاً في تبوك وزاد العدد في نهاية العهد المدني إلى ٦٠ ألفاً في حجة الوداع ، حيث خطبهم الرسول ﷺ وأفهمهم أن مهمته في الدنيا قد انتهت وأشهدهم على أنه بلغ وحرم أشياء وأنهاها إذ وضعها تحت قدمه ، الربا والثأر . وهكذا فقد كان العهد المدني الأقصر مدة الأعظم أحداثاً ، الأعظم تثبيتاً لبنيان هذه الأمة الخيرية .

---

(١) في كتب السيرة المسلمون بين ٣١٣ و ٣٣١ على خلاف التقديرات .

بعد أن اكتمل بنيان هذه الأمة فلا بد لنا أن نشير إلى أمور هامة جداً اتصفت بها أمة الإسلام ؛ حتى تمكنت أن تسمو بين الأمم وترتفع ، وتكون هي الأفضل والأسمى بين الأمم وترتفع ، وتكون هي الأفضل والأسمى عند الله تعالى من جميع الأمم . وإن انحدار المسلمين اليوم لا يعني إطلاقاً مساساً بالإسلام من قريب أو بعيد ، فإن المسلمين باختيارهم تركوا هذا الدين إلى سواه ، أو إلى فراغ لا يمكن أن يبنى أمماً مهما كانت ، أو جرى المسلمون وراء التوافه والمنحط من الأقوال والأفعال والتجارب ، وأرادوها لهم منهجاً وهدفاً ووسيلة تركوا الإسلام بعظمته الذي يفهم ، والذي كان السبب الذي جعلهم هم الأخيار .. إن ابتعاد الإسلام عن المسلمين يعني في الواقع انفصاماً نكداً شريراً ، نتائجه ما يعاني المسلمون الآن من أمراض وأوجاع وهزائم وفرقة وكبت وقهر ، وانكسار وانحسار في جميع نواحي الحياة ، وفي جميع المجالات التي دفعوا أنفسهم ليعيشوها في الدنيا ، قانعين بذل ما كتبه الله عليهم فالله اختارهم لقيادة الأمم باعتبارهم خيرها ، ولم يقبل بهم بحال في هذا الحال ، وإن أي اقتراب مهما كان بين المسلمين والإسلام فإنه يعتبر درجات صاعدة وليس هوة ماحقة ، درجات تسمو بهم إلى المجد والأعالي والخيرية ، وهذا ما فهمه وما وعاه أعداء الأمة فكان همهم توسيع الهوة بين الإسلام والمسلمين ، فكلما أشعلوا ناراً ، أو أضاءوا نوراً أطفأه أعداء الله والإسلام . وليبقى المسلمون تبعاً مهملين متقاتلين متناحرين متنافرين ، بأسهم بينهم شديداً ، وعزمهم على إخوانهم ، وارتضوا الذل والمهانة في الحياة الدنيا .

نعم إن حال أمة المسلمين الآن ، ليس هو المطلوب من أمة الإسلام ، ولكن المطلوب هو التمسك بهذا الدين ، ولذلك أشار الرسول ﷺ محدداً الغربة فقال : " يعود الإسلام غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء " وهنا لا بد من تفسير هذا الحديث فقول الرسول ﷺ : " سيعود الإسلام غريباً كما بدأ . . " قال : الإسلام ، ولم يقل : المسلمون وهذا تأكيد على أن هذا المبدأ الذي صنع خير أمة هو غريب الآن بين الناس ، ثم قوله : " فطوبى للغرباء .. " تشبيه بليغ بأن أخفى أن هذه القلة من المتمسكين بهذا الدين هم الغرباء ، فطوبى لهم ولو كانوا قلة .. ويؤيد هذا الرأي قول الرسول ﷺ : " القابض على دينه كالقابض على جمر " بعد أن أشار إلى زمان يكون حال المسلمين فيه كذلك ، فهم الغرباء وهم القابضون على دينهم .

إن عودة المسلمين .. أو إسلام آخرين – وليس الشرط بالعدد – وتمسك هؤلاء أو أولئك بالإسلام ؛ فإنه هو الطريق الذي ضل عنه وحاد وترك أكثر الذين حملوا اسم الإسلام .

لقد تميز المسلمون بأمور لا بد من تواجدها ، وأن تكون هي الفيصل في حياتهم ومنها:

الهوية :

تميز المسلمون عن غيرهم من الأمم والشعوب ، ومنذ أن ظهر الإسلام : بالهوية فهوية المسلم : اسمه ، وانتماؤه، وعقيدته ، تلك العقيدة التي لم يشاركه بصفائها أحد. نعم كثيرون يؤمنون بالله ، ولكن جميعاً لم يتمكنوا ـ غير المسلمين ـ من تصور الوحدانية والألوهية والربوبية ، كثيرون أشركوا بالله ووزعوا القوى الغيبية على قوى أخرى .. بعضها وهمي وبعضها ما وقع تحت حواسهم ، وبذلك أشركوا بالله . اليهود أشركوا بأن اتخذوا لله أبناء : ﴿ **وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة :٣٠] ، وجردوا الله تعالى من صفات الألوهية والربوبية والوحدانية ، وقالت اليهود : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وعلى الرغم من ارتباط اليهود بأصول سماوية ، واتباع لأنبياء أرسلهم الله ، وكتب أنزلها الله ، لكنهم حرفوا وغيروا وبدلوا في التاريخ والعقيدة ، والدعوة ، والحلال والحرام . أحلوا حراماً وحرموا حلالاً . . ولم يرعووا أن يطلقوا على الله صفات وأسماء وأفعالا وتجاوزات أوردوها على لسان أنبيائهم ، وجعلوا الله تعالى مطية لهم ، وطوع أمرهم ، معاتب على أفعال اقترفوها ، ومأمور بأحوال وأعمال أن يفعلها لهم ، وقتلوا أنبياءهم ، ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وقد ارتكبوا من المنكرات والمحرمات ما يعتبر وصمة عار وجبن فيهم . أما المسلمون فقد كانت هويتهم التوحيد المطلق ، ومن يشرك من المسلمين يخرج أو يخرج من ملة الإسلام . . لأن هوية المسلم الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والنصارى أشركوا بالله ابنه والروح القدس ، وأظهروا الله بمظهر الضعيف الذي لم يتمكن أن يرفع عن ابنه غائلة العذاب ، وتركه ـ كما يدعون ـ نهبة للعذاب والصلب بزعمهم فضلوا وأضلوا ، واتخذوا الصليب رمزاً فعبدوه ، وأخذوا العذراء رمزاً فقدسوها وجعلوها زوجة الله ، وألهوا المسيح ، واختلفوا في ناسوته ولاهوته وانقسموا إلى فرق وطوائف كل يكفر بعضه بعضاً ، وكتبوا أناجيلهم ونسبوها إلى مصادر غيبية ، وما زال في معتقدهم متسع للتحريف والتأويل ، وفي لقاءاتهم متسعاً للفتوى التي تخرج كثيراً عن النصوص ، وأخيراً أظهر النصارى كفرهم بدينهم ، وأطلقوه من أعناقهم ، والتزموا بأمور بشرية اخترعها الملحدون منهم ، وتغلب من عرفوا بالعلماء على الرهبان ، وسحبوا من تحتهم البساط ، وحكموا عالم النصارى بقوانين بشرية ، وتركوا للكنيسة موقعاً يردده المتدينون منهم ، دون أن يكون لها إلاّ تأثير أخلاقي على بعض الملتزمين بها ، والباقون في غيهم ساهون ، وتحت كل سماء يتيهون .

وعلى الرغم مما أصاب هذا الداء قطاعات إسلامية كثيرة ، لكن قضية الهوية ما زالت هي التي تميز المسلمين عن سواهم ، في المعتقد والإيمان والسلوك والخوف من الله . المعصية قائمة بين

جماعات كثيرة من المسلمين ؛ ولكن قضية التوحيد في أذهانهم ، وإن ترك كثير من العبادات لدى شرائح كثيرة من المسلمين ، لكن الشعور بالوحدانية يلف الجميع ، ولكنهم مهما اختلفت اتجاهاتهم وانتماءاتهم ، وأزمانهم وأماكنهم ، ما هم إلاّ أناس يشعرون بالتقصير ولكن يدركون تماماً أن الله هو الواحد الأحد لا شريك له ، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إن عقيدة المسلمين هذه (التوحيد) انفردوا بها على مدار العصور .. صحيح أن بعضاً من المبتدعة ، ومن مجتمع المسلمين ، قد تفلسفوا بالوجود ووحدة الوجود ، وتجمع القوى والقوى الخارقة ، والشطحات التي أثرت عن تلك التجمعات . كما أن كثيرين قد ألهوا محمداً وعلياً وغير ذلك ، لكنهم نبذوا وعرفوا وعرف جميع المسلمين بضلالتهم ، ولقد كان لهم تواجد وسيادة في زمان ومكان محددين ، تاركين وراءهم خلفاً أضاعوا الصلاة ، وكثيرون تركوهم وعادوا إلى رشدهم ، وإلى توحيد الله عز وجل ، والبعد عن الشطحات والسقطات والفلسفات التي شغلت قوماً ما في زمان ما في مكان ما . هوية المسلم التوحيد المطلق ، وهو ما ميز الله تعالى الأمة .. والاعتقاد الراسخ بالوحدانية والربوبية والألوهية. ولو أن بعض الآراء تحدثت بالأسماء وبالصفات ، ولكن الجميع متفقون على الوحدانية المطلقة لله تعالى ولنبوة محمد ﷺ ، حتى أولئك الذين وجدوا في بعض الترهات والهرطقات بعض قناعات زائفة ، أو محاولات لقهر الفطرة المسلمة التي اتسمت بالإيمان المطلق بوحدانية الله تعالى .

ـ هوية المسلم الإيمان بالله وحده ، وكل الأفعال التي يتأتى بها كثير من المسلمين من بعض الشركيات والممارسات التي يقومون بها لبعض المخلوقات مهما كانت ؛ وهي كلها من البشر ، يدرك أصحابها أنهم يتعاملون بهذه الشركيات مع مخلوقات ، أمَّا الخالق فالله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ليس لدينا إحصائيات دقيقة عن الانحرافات في بعض الأزمنة والأمكنة ، ولكن الواقع الذي يعيشه المسلمون ينأى عن الشرك ، والعدد القليل من المنحرفين يقلون دائماً ويذهبون إلى زوال ، والمؤمنون الصادقون يذهبون إلى كثرة وإلى عود إلى الله في جميع الأفعال والأعمال والأحوال .

هذا المعتقد هو الذي وصف الله به الأمة الخيرة : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ(١١٠)** ﴾ [آل عمران] ولو سبق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية الإيمان فليس ذلك للتفضيل ، ولكن لتصور أن الأولى لا تتأتى إلا بالثانية ، فما أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ملحد أو حائد عن درب الإيمان والتوحيد .

إن من خصوصيات الأمة في الإسلام – ضمن مالها من خصوصيات – أن ارتبطت بالعقيدة الدعوة ، مما أضفى عليها بعداً غيبياً ؛ إضافة إلى أبعاد تكوينية ووظيفية غائية معلومة ، فالأمة ارتبطت بالتوحيد وهو وعاء الرسالة الخاتمة . فالرسول ﷺ عندما مات لم يخلف إمامة أو دولة ؛ ولكنه ترك أمة انبثقت منها المؤسسات والمدارس،والأئمة والدول ، فليست الدولة في الإسلام مداراً للأمة قياماً وامتداداً وتطوراً وضموراً،ولكن الأمة تدور مع العقيدة والعقيدة هي منطلق بقاء الأمة .

لقد باتت العلاقة الجدلية بين الأمة والعقيدة هي الخصوصية التي شكلت المدخل لمراجعة مفهوم الأمة ، ولمعاودة النظر في بعض المفارقات التي وجدت في تراثنا نحن المسلمين . ففي التراث يوجد الفرد المسلم موضع التكليف والالتزام ويوجد الفعل مناط الوجوب ، والحلال ، والحرام ، والأمة هي التي شهد التاريخ مولدها من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فالمسلم الفرد حين يتوجه ويأخذ العهد فرداً ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ينتقل بعدها ليكون جمعاً في إياك نعبد وإياك نستعين – مع ملاحظة نون الجماعة – فالفرد يدخل عقد الإسلام بشهادة يدخل فيها بوثاق يشده إلى خالقه ، وبوشائج تربطه بجماعة ثابتة الأصول معلومة الوجهة ، وكأنه قد اكتسب بموجب الشهادة عقيدة وهداية مع هوية وانتماء وغاية ، وهذا المقصود بالجمع بين الشهادتين أو بالأحرى بين شقي الشهادة : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله .. رباط رأسي مع الخالق ومع الغيب ومع المصدر وفي نفس الوقت بهذه الشهادة يدخل في علاقة أفقية تجمعه مع الجماعة ومع الأمة ومع الجماعة الأولى فالعقيدة تلقى بخصائصها على خصائص الجماعة وفي نفس الوقت تصوغ نفسية الفرد المسلم ومن خلال هذه النفسية تصاغ أيضاً الجماعة ونفسية الجماعة وخصوصيتها (مجلة الرشاد ص ٣٩ ــ ٤٠) .

والسمة الثانية التي تميز المسلمين عن سواهم : أن الفضائل معروفة لديهم والرذائل أيضاً معروفة، تتناقلها الأجيال جيل بعد جيل . يعرفها الطفل والشاب والرجل والمرأة ، ولذلك وهو شيء عفوي فطري ، أن مجتمع الإسلام يقوم على الفضائل ، ويجب أن نوثق هذا القول فنقول بأن " الزنا " و " الكذب " و " القمار " و " والقتل " و " السرقة " و " واللواط " و " أكل أموال الناس بالباطل " و " عقوق الوالدين " و " قطع الأرحام " و " النهم " و " الطمع " و " الابتزاز " و " الغش " و " خسارة الميزان " و " الفاضح من اللباس " و " اللهو " و " المنكر" وغير ذلك مما اتفق بنو البشر على إنكاره بأنه رذائل .. نجد أن أقل نسبة لهذه القضايا في العالم الإسلامي من غيره من بني البشر . وما زالت مجتمعات إسلامية كاملة تهتم بالحشمة ، وتهتم باتخاذ الحدود القاسية

تجاه الكثير من هذه الأفعال التي تعتبر في المجتمعات الأخرى سمات مرتبطة بالحرية الشخصية ، حيث وجدوا لها ما يبررها من اشتقاقات اسم الحرية التي قيدت .

الكثير من القيم أطلقت الكثير من الشهوات . وإن الفضائل سمة المسلمين ، ولو أن بعضاً من الشعوب لا يقدم أيضاً الكثير من هذه الصفات إلاّ أنها لا تعتبرها عقيدة وإتيانها عبادة ، وتركها تقرباً إلى الله تعالى ، كثير من الشعوب تشارك المسلمين ببعض الفضائل ، لكنها في جانب آخر تهدر الكثير من القيم الفاضلة وتعتبرها مباحات ؛ كالخمر وأكل الميتة وأكل لحم الخنزير ، والتواصل الجنسي المحرم وكشف العورات ، والتكشف الجسدي عموماً وقطع الأرحام ، والربا ، والزنا ، والقمار ، فإن ما حرمه الله تعالى على المسلمين لحكمة أرادها ، ولذلك فلا يوجد شعب كامل تحلى بالفضائل مثل المسلمين وتزداد النسبة وتقل حسب التدين ، لكن الأمر على العموم متفوق جداً على الخصوص في كل زمان ومكان .

إن صلة الأرحام وطاعة الوالدين وصلة القربى، والتأكد من مصادر المال وإنفاقه وكسبه أمور كلها في ميزان المسلم ، يثاب عليها ويعاقب على مخالفتها . هذه الهوية التي يتميز بها المسلم عن سواه إنما هي تلك الإرشادات والأوامر والنواهي التي أمر الله بها وبلغها رسوله ، وكان سلوكهﷺ الفيصل في كل هذا ؛ فقد كان النقي التقي الورع المؤمن الزاهد المجاهد الصابر المحب في الله والمبغض في الله واصل الرحم ، شديد المحاسبة كثير المعاتبة، إنه الأسوة الحسنة للمسلمين يتمثلون بسلوكه ويتمثلون بعمله وقوله وإقراره وفعله ، وبذلك فإن الفضائل الإنسانية التي يعرفها البشر عموماً إنما هي من صفات المسلمين اليوم وهويتهم دون غيرهم من شعوب الأرض .

الطهارة :

الطهارة إحدى أقوى السمات التي يتصف بها المسلمون. والطهارة تعني الثوب والجسد والمكان، وتدخل آثارها بطهارة القلب من الدنس والرجس ، فقد منعت أم حبيبة (أم المؤمنين) رضي الله عنها أباها أبا سفيان أن يجلس على فراش رسول الله، وقالت له وبكل صراحة: أنت رجل نجس . قالتها فاطمة بنت الخطاب لأخيها عمر عندما أمسك بالرقيعة التي كتب عليها القرآن: دعها إنك رجل نجس ، فالطهارة التي هي عكس النجاسة وتتمثل بالثوب والأداة واللباس والجسد والمكان ؛ تميز بها المسلمون عموماً ، على الرغم من ندرة المياه في أكثر الأراضي الإسلامية فهم يؤدون الطهارة للصلاة والصوم والحج وللعبادات ولقراءة القرآن وتناوله ، ويتطهرون من الحدثين (البول والبراز) وهو الحدث الأصغر ، ومن الجنابة وهو الحدث الأكبر .

ومن لم يحصل على طهارته من الجنابة وجاء مجاهداً واستشهد بعث الله ملائكته لتغسيله من حدثه، فعرف بغسيل الملائكة إنه أبا حنظلة بن أبي عامر من الأنصار ومن بني عبد الأشهل من

الأوس . ويغسل الميت ويكفن ويطيب ، ويطهر من أدرانه ، والطهارة تغسل الذنوب عدا كونها تغسل الأدران . قالﷺ :" أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل منه خمس مرات في اليوم أيبقى من درنه (وسخه) شيء ؟" قالوا : لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء . . فقال ﷺ : "وكذلك الوضوء فإنه يغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن" . فالطهارة هي سمة هذه الأمة بترتيب محبب عجيب سنه المصطفى ﷺ للمسلمين حتى يكونوا دوماً كالشامة البيضاء ، وحبب لبس البياض من الثياب حتى يظهر عليها الوسخ فتزال . وذكر ﷺ أن عذاب القبر سببه عدم الاستبراء من البول ، وعودة إلى الفقه الإسلامي للاطلاع على مزيد من هذا المقال في باب الطهارة الذي تبدأ به أبواب العبادة دائماً. وفي جميع كتب الفقه على اختلاف الفقهاء في بعض الاجتهادات. كما جعله المحدثون أيضاً أول أبواب كتب الحديث وإن صنفت حسب أبواب الفقه المعتمدة .

إن المسلم طاهر مطهر .. وقد يتجاوز نظافته الكثير من الشعوب ، لكن تبقى قضية الطهارة قاصرة جداً على محدودية عجيبة ، ثم إن طهارة المسلم تسبقها النية وهي عنصر هام في تحقيقها وصفة المسلم بها .

تلحق بالطهارة أمور هامَّة لم يغفلها الإسلام ، ألا وهو الختان للذكور ، وهي معروفة بالطهور عند المسلمين ، ولقد تابع العالم الآن هذا الأمر بعد أن كان تركه (عدم فعله) ميزة وعبادة للنصارى على الخصوص ، فإن اليهود يجرون عادة الختان ، وليس غير هؤلاء يفعلون ذلك . والختان في حالات خاصة ومحدودة جداً عند النساء ، وفي سكان بعض مناطق العالم يستوجب ذلك ، كما أن مظهر المسلم الخارجي من تهذيب الشعر والأظافر ، وتنظيف مواقع خاصة في الجسد كالإبطين والعانة ، وحدود طهارة المرأة ومنع اقترابها في حالتي الحيض والنفاس ، والتأكيد على هذه الأمور أمر من العبادة عند المسلمين ، ولقد توجه العالم الآن وفي كثير من المواقع فيه للأخذ بهذه الأدبيات ؛ التي تعتبر من مستلزمات الطهارة عند المسلم ، وهي أمور يبقى تركها فيه حد من العصيان،وإتيانها والقيام بها فيه ثواب،باعتباره أيضاً نوع من العبادة . كما أن الغسل من الحدث للرجل والمرأة من أوجب الواجبات لدى المسلم فلا تتم العبادة إلاَّ بالطهارة منها .

إن الطهارة ميزة وهوية للمسلم تميزه عن غيره من الشعوب ، وليس خاصية الشعوب الأخرى من غير المؤمنين المسلمين هذه الميزات ، التي تؤدي إلى طهارة الجسد ونظافته وطهارة النفس . وهي سبيل إتيان العبادات وراحة النفس المؤمنة ، كما أوجب الإسلام غُسل الجمعة ولو من غير حدث ، وتغسيل الميت واغتسال من قام بغسل الميت ، والوضوء بأركانه وسننه ميزة أخرى في نظافة المسلم لتأدية الصلاة والعبادات والنوم على طهارة [1] .

---

(١) راجع : من أجل ذلك أبواب الطهارة في كتب الحديث وكتب الفقه في الشرع الإسلامي .

العبادة :

أصبح العالم اليوم صفحة مفتوحة أمام كل الناس ، وقربت وسائل الإعلام للنـــاس عـــادات الشعوب وتقاليدهم وممارستهم وطقوسهم ، ومشاعرهم على اخـــتلاف ممارســـاتها ، وأزمانهـــا ، وأشكالها ، كما أن جامعات معتمدة معروفة فتحت كليات وأقساما علمية لدراســـة مقارنـــات الأديان في العالم ، وعرف العالم الكتب والرسائل والمعارف للكثير من المختصـــين أو العلمـــاء . والعبادة في ممارستها عند أهل الكتاب (المسلمون ، والنصارى ، واليهود) والوثنيين (الهنـــدوس والبوذيون) وما اشتق عن هذين المبدأين من ممارسات ومسميات " البراهمية وفروعها الكـــثيرة ، والكنفوشيوسية ، والمادية ، وغيرها من عبادة الطوطم ، وعبادة القـــوى الطبيعيـــة والرمـــوز ؛ والأشكال والجدود والحيوانات .. إلخ ".

ولا نقارن أمراً مع أمور مناهضة أو متناقضة ، لكن نشير إلى أن العبادات السماوية التي يدين بها أكثر من نصف سكان الأرض ، فالنصارى وهم الأكثرية الساحقة عدداً ، ثم المسلمون الـــذين يشكلون ربع سكان العالم ، والقلة القليلة جداً من اليهود والذين لا يصلون بحال إلى ٢٥ مليون في العالم كله . عرف هؤلاء بأهل الكتاب .. المسلمون تميزوا عن اليهـــود والنصـــارى بالتوحيـــد وبالطهارة ؛ فإنهم أيضاً يمتازون عنهم في العبادة ، والصلة بالله عز وجل ، وتأدية النسك التي أمر الله بها ـــ فحياة المسلم كلها عبادة ـــ كل فضل من الفضائل مارسه المسلم فهو له عبادة ، عدى ما خص الله تعالى به المسلمين من الشهادة ـــ والمسلمون كلهم يشهدون بوحدانية الله ورسالة نبيه إلاّ نوادر من المنكرين العصاة الذين تنطق فطرتهم بهذا في كل تصرفات حياتهم ، والصلاة .. المفروضة والمسنونة ، والنوافل والصلوات الواجبة كالجمعة والعيدين والاستسقاء والجنازة أما النوافل فغـــير محدودة بزمان أو مكان إلاّ في مواقع محرمة لكل الصلوات وهي الصلاة مع الغروب والشـــروق ، وخلف قبر أو نار أو تمثال أو صورة أو مجسمات ، والصوم المفـــروض في رمضـــان ، والقضـــاء والكفارة والقتل الخطأ والظهار والسنن من الاثنين والخميس من كل أسبوع ، والأيـــام البـــيض والأشهر الحرم ، والتطوع والمناسبات ست من شوال وعاشوراء ، ووقفة الأضـــحى . وكـــذلك الزكاة وهي فروض وسنن ومن تطوع خيراً فهو خيراً له ، وأن تصوموا خيرٌ لكم ، وما تقـــدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا .. والحج والإيمان الذي هو بضع وسبعون شعبة أعلاها الإيمان بالله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق .. كل هذه العبادات المفروضة والعبادات والمعاملات ، ليس في العالم إطلاقاً شعب أو أمة حتى ولا المختصين من الرهبان والأحبار والنساك والعبَّاد ـــ يمارسون العبادة كالمسلمين ، فميزة المسلم في كل موقع وفي كل مكان يؤدي عباداتـــه

على اختلافها ، وعلى مدى التزامه بها ، وإن العبادة عند المسلمين يومية وممارسات إسبوعية ، وشهرية،وسنوية،وفي كل لحظة من اللحظات ويتبع النية العمل ..قال ﷺ .." إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " [1]وعودة إلى بدء ؛ فإن وسائل الإعلام بينت أن المسلمين فقط في العالم هم الأكثر التزاماً بدينهم ، والأكثر تديناً، والأكثر ممارسة للعبادة ؛ فالحج الذي يرده بضع ملايين في كل عام _ عنوانه الطهارة والنظافة _ والصيام الذي لا يتركه إلاّ مكابر ،وتنقل وسائل الإعلام كلها صيام المسلمين في جميع أنحاء العالم ، والصلاة والجمعة ، التي تنقل في جميع الفضائيات العربية والإسلامية .. كل هذا نوع من الدلالة الحقة على أن هوية المسلمين المتميزة هي العبادات ؛ ويعتبر المسلمون بحق أكثر شعوب الدنيا ملازمة للعبادات،مما ميزهم ويميزهم بهوية الفضيلة الحقة،حتى العصاة منهم فإنهم يجأرون إلى الإسلام ويعودون إليه في مناسبات كثيرة ، ومواقع كثيرة ، ومن ثم فيلحق بهذا قضية الدعوة الإسلامية .

إن كثرة الداخلين في الإسلام هم الأكثر عدداً ونسَباً من غيرهم من الشعوب ؛ مع قلة اليهود في العالم فإن المتدينين منهم نسبة ضئيلة جداً والعلمانيون منهم الأكثر ، والنسبة تتعدى كثيراً الثمانين بالمائة من الذين هجروا الديانة وساحوا في الأرض يبحثون عن ملاذ غير ديانة اليهود .. أما بالنسبة للنصارى فالعدد أكبر بكثير مما يتصور الناس من الذين تفلتوا من الكنيسة ، ومن يوم الأحد ، ومن الصوم ومن الحج إلى بيت المقدس ، ومن ومن ومن ومن كل ما يربط النصارى بدينهم .. وظهر بين النصارى الملايين من الذين يعترفون بأن لا دين لهم ، فهم ينكرون نصرانيتهم، ولم يدخلوا في معتقد آخر،أو يلتزموا بديانة أخرى،والمتدينون من النصارى الذين ترعاهم الكنائس من رهبان وراهبات ومبشرين ومتدينين لا يصلون إلى ٢٠ % أيضاً من مجموع النصارى في العالم ؛ الذين يصلون إلى نسبة عالية جداً فهم الأكثر انتماء في العالم من غيرهم من الشعوب . ولكن العصاة والمنكرون،والخارجون على الإسلام،والمقصرون..كل هؤلاء لا تصل نسبتهم إلى ٢٠ % من مجموع المسلمين، فنرى أن النسب تنعكس بين التدين والإلحاد بين الإسلام وغيره من الديانات الأخرى..أما ارتباط الآخرين بدينهم فليس أحسن حالاً بأي حال من حال اليهود والنصارى .

هذه النسب قريبة جداً من الحقيقة وإن لم تكن هي عين الحقيقة ، وليس في العالم حيال هذا إحصاءات معينة .. لكن المشاهد والمتداول بين الشعوب التي تقاربت تقارباً عجيباً هي المرئية علناً للمراقبين والدارسين ، والذين ينظرون إلى الدنيا بمنظار غير علمي وغير منحاز .

---

(١) البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧/١٥٥) .

إن العبادة والتدين هوية المسلم أيضاً ، ولا ينكر المسلمون إسلامهم ، فهم أي المقصرون بين المعترف بتقصيره ، والمتعصب لدينه – عن جهالة – ولكن الانتماء يبقى أكثر قربى والتزاماً بين المسلمين في جميع أنحاء العالم .

يرتبط بعبادة المسلمين أماكن العبادة من مساجد وجوامع وزوايا وأماكن عبادة ، ومع الإسلام وحده – من دون الأديان الأخرى – تؤدي به العبادة في أي مكان كان ؛ تتوفر به شروط الطهارة والجفاف،أي أن الدنيا كلها أرض صالحة للعبادة للمسلم. يستثني منها القليل جداً الذي لا تتوفر به الشروط،مع الفسحة الكبيرة للمسلمين استناداً لقول رسول الله ﷺ:"جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا " كل هذا فإن أكثر أماكن العبادة المنتشرة في العالم تخص المسلمين ، ولا يوجد في أية ديانة سماوية أو أرضية أماكن للعبادة تتقارب من أماكن عبادة المسلمين ، وللمسجد عند المسلمين حضارة خاصة وأدب خاص ؛ من بدء الإنشاء إلى مزاولة العبادة فيه ، مدروسة مقررة محفوظة يتعلمها كل مسلم يدخل هذا المكان ويتعامل فيه ، وما هي الحدود المسموح بها للتعامل معه ، واستخدام مرافقه ، وارتبطت به أوقات مدروسة مخصصة استحوذ – مع جفاء الحكومات الإسلامية عن الإسلام – إيجاد وزارة خاصة تختلف مسمياتها من مكان إلى آخر ، لكن كلمة الأوقاف في صلب تسمياتها ؛ جل عملها يقع على حفظ أماكن العبادة وإنشائها وصيانتها والمحافظة عليها . وتقوم حروب ، ويتساقط الشهداء دفاعاً عن مسجد وجامع ، خاصة في نقاط التماس مع الديانات الأخرى . ولقد كانت إلى فترة قريبة ـ ديار النصارى ـ تشح بوجود المساجد ؛ إلاّ أنها الآن تمتلئ بالمساجد ، حتى في القرى النائية ، حيث يتواجد بعض المسلمين هناك، وعلى الخصوص في كل من القارة الأمريكية ـ شمالاً وجنوباً ـ وأوربا الشرقية والغربية ، واستراليا . أما في الهند فالصراع على أشده بين المسلمين والهندوس لملكية مساجد وأرض تعود إلى هذه المساجد . وفي الصين فإن الأمر يشبه كثيراً ما يجري في الهند . أما عن ديار المسلمين فإن الناس يتبارون بتشييد أماكن العبادة وتزيينها ، ولعل أعظم الأبنية المشيدة الآن في الأرض المساجد هندسة وعمراناً وزخرفة وكسوة وطهارة ، إلى درجة أن حصل في هذا العصر ـ رغم جفاء الحكومات الإسلامية مع الإسلام – تشييد بعض المساجد التي تعتبر آيات معجزة في تفكير العقل البشري . ولو أننا أحصينا ما عمله المسلمون من إحصائيات متواضعة ، والتي ربما لا تقارب الحقيقة لوجدنا أن دور عبادة المسلمين الأكثر انتشاراً والأوضح عدداً من أي أماكن أخرى في العالم ؛ وخاصة عند النصارى . وفي عالم النصارى الآن ظاهرة ملفتة للنظر ، وهي أن نسبة كبيرة جداً من المساجد وأماكن العبادة للمسلمين كانت يوماً ما كنيسة ؛ أو مكان تجهيز موتى النصارى أو معابد يهودية ، أو مدارس دينية لكلا الديانتين ، والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المجال .

– بدأ المسجد بأول مسجد بناه رسول الله ﷺ في المدينة ، وزامن إنشاءه أو سبقه قليلاً مسجد قباء ، والآن مسجد رسول الله ﷺ – الذي بني من جذوع النخل وبعض اللبن وسقف بجريد النخل وفرش بالحصباء – تزايد وتوسع وكبر ، حتى أنه يعتبر من المعجزات للإنجاز البشري في العصر الحاضر . . إنه يشمل مدينة الرسول ﷺ المحددة في كتب التاريخ ويعتبر آية رائعة من الفن والبناء ، والزخرفة والتكييف والفرش والمرافق الملحقة . كما أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد البيت الحرام . . الذي يعتبر بحق أكبر مكان عبادة في العالم .. وأعظم مكان يجتمع به المسلمون في العالم في موعد الصيام – رمضان – وفي الحج . إذ تقدر الأعداد التي تتواجد به في الحج بخانة الملايين ، ومن العجيب أنه يخلو خلواً شبه تام يوم وقفة عرفة ؛ إلا من سكان مكة الذين يعمرونه ذلك الوقت . ومن المساجد القديمة والحديثة في العالم الإسلامي عدا الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ، والمسجد الأموي ، والمسجد الأزهر ، وتاج محل ، ومسجد لاهور ، ومسجد الملك محمد الخامس، ومسجد السلطان قابوس ، ومساجد عظيمة جداً في تركيا مثل مسجد السلطان أحمد ، ومسجد الفاتح ، ومساجد أخرى في بلاد الترك وبلاد العرب ، وفي القارة الهندية وفي جنوب شرق آسيا وبدأت تبنى مساجد ضخمة في أوروبا وفي أمريكا وفي إفريقيا وفي جميع أنحاء العالم .

– تتميز المعابد للمسلمين بميزة قل أن توجد في أماكن العبادة الأخرى ، فهي أولاً وقبل كل شيء لا تبنى على أرض مغتصبة إطلاقاً ، ولا تحول دور العبادة الأخرى إلى مساجد إلا بالشراء اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ عندما اشترى حصة الغلامين ، من الأنصار التي وقعت ضمن محيط مسجده ، وما يقال عن آيا صوفيا ، وما يقال عن مسجد بابرك في الهند ، وما يقال عن بعض المساجد في البوسنة ، فإن هذه المساجد اشتراها المسلمون من مال المسلمين والوثائق كلها تشهد بذلك . ورفض عمر بن الخطاب أن يصلي في كنيسة القيامة في بيت المقدس ، رغم طلب وإلحاح نصارى ذلك العصر ورهبانهم وذلك حتى لا يتخذها المسلمون بعده مسجداً . إن دور العبادة في الإسلام تُبنى بالمال الحلال ، وتتحرى فيها الطهارة إلى أدق ظروفها ، وتعتبر بيوتاً لله ؛ فهي مقدسة تقديساً لا يمكن أن يجري بها دنس أو فسق ، أو شجار ، أو خصومات ، أو إساءة ، أو ارتكاب محرمات ؛ والداخل للمسجد معتكف عن كل قضايا الدنيا إلا العبادة لله الواحد الأحد [1] .

– **هوية المسلم السلام** : قال تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء : ٨٦] وقال ﷺ : " أفشوا السلام بينكم" وفي أحاديث كثيرة أخرى يؤكد الرسول ﷺ

(١) انظر المسجد في تخطيط المدينة العربية الحديثة ـ بحث مقدم لمؤتمر المدينة العربية الثامن ، منشور ضمن بحوث المؤتمر الجزء الأول / ١٩٨٦م .

على التحية ، وتحية الإسلام السلام . والتحية هذه تعتبر ميزة خاصة يختص بها المسلمون عن سواهم . وإفشاء السلام عبارة تميز المسلمين عن سواهم ، ومن المعروف أن هذه التحية هي جواز السفر للوصول إلى قلب أي مسلم في العالم ، وإن هذه العادة تخلق جواً من المحبة والمودة ، والتقارب والتفاهم والتواصل بين المسلمين عموماً ، وكلمة السلام – التي أرادها الإسلام لأتباعه – هي الرضا والبعد عن الضعف والضغينة والبغضاء والعداوة بين المسلمين ، ثم إن هذه التحية المباركة التي يعتبر أداؤها واجبا ، وردها فرضا ، قد نالت في طور العبادة مقاماً كبيراً كونها واجبا دينيا ؛ وردها فرض تربط قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها برباط المحبة والصلة.. والتحية التي تعتبر مفتاح القلوب للتفاهم ، تؤدي في كثير من الأحيان إلى نبذ البغضاء بين الناس ؛ ونبذ العداوة ، وإحلال الأمان والسلام بينهم .

– **هوية أمة الإسلام** : الاحتشام في اللباس والمظهر ، وستر العورات وستر المرأة ، وحدد الإسلام للمسلمين حدود ما يمكن ظهوره من المرأة والرجل ، وهذا الأمر أصبح ميزة واضحة لأتباع الإسلام ، حجاب المرأة ولباسها الذي لا يشف ولا يجسم ، ولباس الرجل وحدود العورة بالنسبة للرجل والمرأة ، وهو ما اتفق عليه علماء الفقه ، وبعداً عن الخلاف فإن عورة الرجل من فوق السرة إلى تحت الركبة وعورة المرأة كلها إلاّ وجهها وكفيها ، فإنه لا يجوز لا للرجل ولا للمرأة التعدي عن هذه الحدود ، ويعتبر خرقها مخالفة شرعية اتفق عليها فقهاء الأمة توجب الردع من الحاكم ، وتدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والاحتشام أمر مفروض على المسلمين ، والتجاوز الذي وصل إليه الكثير من المسلمين في مدنهم وحواضرهم وفي تواجدهم خارج خارطة أرض المسلمين ؛ إنما هو تعدٍ على فرائض الله وخروجاً على الشريعة التي استوجبت تلك الحدود .

– ويثور الجدل قوياً في مسائل خلافية حول المرأة خصوصاً ؛ وحدود التعامل معها في حدود هذه الحشمة ، فالكثيرون تعدوا هذه الحدود خارج الاحتشام ، وآخرون تعدوه تشدداً بالاحتشام، والجدل مازال قائماً . لكن الدليل الواضح والذي يعتبر الأقرب إلى مفهوم الإسلام هو الحجاب الشرعي للمرأة ولا تلبس الشاف أو المجسم من الثياب . وهذه هي ضوابط الشرع الحنيف ، أما إذا أدخلنا مع أي تخطي بعض المجتمعات المسلمة لهذه الحدود ، فليس هذا سوى ذنب هذه البلاد وشعوبها ، وانحراف هذه الشعوب عن جادة الإسلام ، إذ أن الاحتشام ضرب من العبادة ، وليس عادة من عادات الشعوب التي تتغير أو تتبدل مع تغير المدنية والحضارة ، فالاحتشام عبادة ، وقد وردت آيات كثيرة حول هذه الهوية بدءاً من خطاب زوجات الرسولﷺ الكثيرة الصحيحة في هذا المجال ــ وهذا ما يميز أمة الإسلام عن سواها من الشعوب .

المرجعية :

تميزت أمة الإسلام بمرجعيتها الإلهية الصادقة الثابتة بالتواتر ، وجميع المرجعيات الأخرى للشعوب جميعاً امتدت إليها يد التغيير والتبديل ، والإضافة والحذف والضياع ؛ على مدى العصور والأزمان . فقد نزل الإسلام على محمد النبي ﷺ في فترة وعي البشرية واكتمال نموها ، فاختتم به الله تعالى الأديان والرسالات والنبوات ، بعد أن جمع حقائق كل الأديان السابقة بها وبين الهرطقات والمداخلات الإنسانية ، والتغيير والتبديل في الرسالات السابقة ، وأظهر حقائقها وأبطل خطلها وأغلاطها ، وبذلك فقد تميزت مرجعية الإسلام بحفظ الله تعالى لها وثبات محتواها على مدار العصور ؛ بدءاً من عصر النبوة إلى اليوم وغداً إلى قيام الساعة وقد فشلت كل محاولات الهرطقة والتداخل التي حاولها كثيرون من داخل الإسلام وخارجه ، وثبتت بشكل مؤكد حفظ الله تعالى لنصوص القرآن ، والمساعدة في استمراره ، وفضح وإفشال جميع المحاولات مهما كانت ، حتى ولو طال الأمر رأس الحكم ، واستخدام وسائل الضغط والإكراه في التعامل مع النصوص ، وتبني آراء فيها بعض الانحراف عن مفهوم روح القرآن ونصوصه كقضية " خلق القرآن " ، وتبني ثلاثة خلفاء عباسيين لها ، واتخاذ الكثير من الوسائل لمحاولات الضغط لتبني آراء الحكم ، وكذلك محاولات الخلفاء الفاطميين التحول عن مذهب أهل السنة والجماعة ، وبناء الجامع الأزهر ليكون مركزاً لتبني آراء تشيع ، أو تفسيرات معينة لا تحتملها نصوص الكتاب أو السنة .

إن الحديث عن مرجعية المسلمين فيه الكثير من التشعبات والأحاديث ، وسودت له الكثير من الكتب والصحف . وتعتبر المكتبة الإسلامية بعمومها حديث تلك المرجعية من مختلف العلوم الإسلامية التي تداولها الأولون والآخرون ، ومازال هذا المعين يتدفق في كل جيل ، وفي كل عصر يبين صدق هذه المرجعية ، وفيضها اللامتناهي في مختلف العلوم ، ولحل جميع المشكلات ، وتقسم هذه المرجعية إلى أبواب وفصول نريد أن نجمل فيها في هذا المقام .

أولاً : المرجعية المكتوبة (القرآن الكريم):

ليس في الدنيا مما وصل عن الأقدمين ، ومما أوجده المحدثون ، كتاب أحكمت آياته إلاّ القرآن الكريم .. طالت يد التبديل والتأويل والتغيير والزيادة كتب الأقدمين ؛ حتى التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ، وما بين أيدينا من الكتب السماوية القديمة .. التوراة ، والإنجيل ، والزبور " المزامير " التلمود ، .. وكل ما حوته من متضادات كتب المحدثين المقدسة إنما هي من عمل أيديهم ، وتحداهم القرآن ومازال التحدي قائماً ، وسيستمر التحدي إلى يوم يبعثون ، أن يثبتوا غير ذلك ، فما استطاعوا .. هذا بالنسبة للكتب التي أنزلت على الأنبياء ، فكيف بأقوال كونفوشيوس ، وبوذا

وبراهما وزرا دشت ، وأفلاطون .. فكلها طالتها آلة التغيير والتبديل على هوى الأقوياء الذين غيروها وبدلوها ، ولم يرد نص في كتاب من الكتب السماوية يقول بأن الله قد تكفل بحفظه إلاّ القرآن الكريم وحفظ الله للقرآن بتر كل الأيدي والأفكار والأقلام ، التي حاولت وما تزال تحاول أن تمس كتاب الله بأدنى تغيير حتى ولو بحرف ، أو كلمة .

كما أن القرآن الكريم قد تحدى البشر على أن يأتوا بسورة من مثله ، أو آية ، أو عدة آيات فما استطاعوا .. ولم يستطيعوا ، ولن يستطيعوا ... فالقرآن كتاب الله الذي حفظه الله .. وهو بين أيدينا كما هو باللوح المحفوظ الذي نقله جبريل إلى محمد ونقله محمد إلى أصحابه ومازال يتداول من جيل إلى جيل بكل أمانة وصدق ؛ محفوظاً كما هو في صدور الملايين من المسلمين في عصر .. والملايين الذين يحفظونه على مر العصور .

القرآن الكريم المرجعية للمسلمين : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ فالمرجعية الأساسية هي كتاب الله جلت قدرته ، وهي أجل وأعظم وأفضل مرجعية للمسلمين .. نعم كثيرون تحولوا عن هذه المرجعية إلى قوانين ودساتير ، ولكنها تداس كل يوم بالمخالفات والتناقض والتلاعب والتحريف والتأويل .. فانتشر الظلم بين المسلمين خاصة ؛ وفي العالم عامة .. وأصبحت هذه المرجعيات والشرعيات ؛ ومنها شرعية الحكام والشرعية الدولية وشرعية الظالمين ، وشرعية أحادية القطب الواحد ، كل هذه الشرعيات تداس كل يوم بأقدام الذين يرجعون إليها ، أو يعتبرونها قادرة على نشر العدل والسلام بين البشر .. إن المرجعية التي أرادها الله لعباده المؤمنين ، وأنزلها على عبده الأمين ؛ كفيلة في عصور التأخر والتخلف والضياع أن تعيد الخيرية لأمة الإسلام، فهي هدى الله تعالى وتوفيقه ونصره ورزقه ، وأهم ما فيها الشهادة التي إن فقد من أجلها أفراد أمة الخير حياتهم فإن الجنة هي الحيوان لو كانوا يعقلون ..

في جميع العصور التي مرت على هذه الأمة الخيرة ؛ كان القرآن الكريم المنقذ لهذه الأمة والمقدم خطاها والمسدد نقصها ، والمؤيد لها نصراً على أعدائها ، ومعطيها ما تحكم به من فضائل وانتصارات وأرض وهدى .. والمتتبع لتاريخ أمة الإسلام يصل إلى هذه النتائج الباهرة ، والتي حاول أعداء الأمة طمسها ، وإسدال الستر عليها ، حتى لا تكون نبراساً خيراً مستمراً لخيرية الأمة وبقائها ونهضتها وخروجها من المحن التي تعيشها . ولا تجد السبل في ظل المرجعيات المختلفة أن تخرج منها أو تتخلص من ممارساتها وعواقبها [1] .

إن تتبع مراحل انتشار الإسلام في العالم ، والذي استمد الدعاة هديه من القرآن الكريم ، كما استمد المجاهدون هديهم منه ؛ سبيلين وصلاً بالإسلام إلى أرض لم يكن في خاطر المسلمين أن

---

(١) انظر : كتابنا " صفة كتاب الله في كتاب الله " مخطوط .

يصلوها . أشار الرسولﷺ في بناء أمة الإسلام إلى أماكن يتصل العقل البشري وقتها إلى تصورها ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتاجرون مع اليمن ومع الشام ومع الفرس ومع الهند وسمعوا بالصين . فلم يعرف أن العرب قد وصلوا الصين قبل نزول القرآن ، لكنها كانت في أدبياتهم وطموحاتهم .. وذكرت في معرض البعض المطلق عن جزيرة العرب عندما أشار النبي ﷺ إليها بقوله : "اطلب العلم ولو في الصين". فإن وصول الإسلام إلى الصين ، أي أنه أعطى و لم يأخذ .. ما أخذ علماً من الصين ولكنه وصل بالمجاهدين والدعاة إلى الصين وشمل الهند وتوغل في أواسط آسيا ومجاهل أفريقيا وقلب أوروبا والأمريكيتين . بكل قوة وعزم .

إن القرآن الكريم هدي الدعاة والمجاهدين .. بنى خير أمة أخرجت للناس ، وجاءت الشهادة في نصوصه وفي آياته .. محيداً بذلك أهل الكتاب للأسباب التي وردت في نفس آية أمة الخيرية : ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ** (١١٠) ﴾ [آل عمران].

إن أوصاف القرآن قد ملأت ملايين الصحائف ، وإن القرآن الكريم قد حفظ بآلاف الأشكال والألوان ، حفظ في الصدور وحُفِظَ كتابةً ، وحفظ حقوقاً ، وحفظ ترتيلاً وحفظ تجويداً وهدراً وحفظ على القراءات ، وحفظ تفسيراً ــ فلا يمكن إحصاء الذين تطوعوا لتفسيره وتبيان أحكامه ، وحفظ في التشريع .. وحفظ في القوانين فهو المرجع الأول والأوفى لكل المسلمين ، يجدون فيه ضالتهم ، ويجدون فيه مبتغاهم ، ويجدون فيه أحكام الله تعالى التي ارتضاها لعباده ، ويجدون فيه أمنهم وأمانتهم ، ويجدون فيه هدفهم ومبتغاهم ، ويجدون فيه وسيلتهم ومقصدهم .

وكل التجارب التي اتخذت القرآن مرجعية نجحت نجاحاً غير مسبوق ، وغير ملحوق ، في ذاك الطريق ، وما عمل بموجبه قومٌ إلاّ عزوا ، وما تركه قوم إلاّ ذلوا ، ولو كان عددهم مليار ويزيد ، وفي تركه لاقى المسلمون اليوم عقابهم من الذل ومن التخلف، والفرقة والفقر والتناحر والتباغض ؛ في ظل حكومات حملت كل الأوزار من شعوبها ومن محركيها في عالم الأقوياء .

إن خير أمة مرجعيتها خير كتاب ، أمة التوحيد ، وأمة الأخلاق ، وأمة الفضيلة وأمة العبادة لها أيضاً خير كتاب للدنيا وخير كتاب للآخرة ، وخير كتاب للنصر ، وخير كتاب لاستمرار الخيرية في أمة الإسلام [1] .

---

(١) انظر : الرشاد مجلة فصلية ثقافية تصدر عن مركز دراسات الثقافة والحضارة " أمريكا " العدد ١٢ السنة ٦ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ أغسطس آب ٢٠٠١ ص ٣٥ مقال : الأمة القطب في السيرة والمفهوم د . منى أبو الفضل .

المرجعية الثانية : الحديث الشريف :

يملك المسلمون في حديث الرسولﷺ كنزاً فريداً من نوعه في العالم ، ومن أعمال الرسل . ففي الوقت الذي خلط به أتباع الديانات السماوية كتب الله تعالى بأقوال وأفعال رسلهم ؛ أدى ذلك إلى الإشراك والكفر في كثير من المواقع . أخبرنا الله تعالى عنها من أعمال أهل الكتاب . أما بالنسبة لنا فقد تمكن المسلمون بتوجيه من نبيهم ﷺ الفصل الكامل بين الحديث الشريف والقرآن الكريم الذي هو أصدق الكتب على وجه الأرض بوحي الله تعالى وأوامره ونواهيه وحلاله وحرامه، وقدرته وإرادته ، وهديه وصفاته وأسمائه ، وأخبار السابقين واللاحقين ، وجعل فيه الاستمرارية باكتشاف آياته بعد تنزيله : ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** (٨٨) ﴾ [ص] واكتشفت أشياء في الكون والعلم والأرض والنفس والدواب والحشرات وجميع المخلوقات في فورة العلم المطلق لتجد أساسها ؛ وخبرها في كتاب الله عز وجل . تميز القرآن تميزاً كاملاً على أن يكون به شيء من عمل البشر ، كل ما عمله البشر ... أن فسروه وقرأوه ودرسوا أحكامه ، وفصلوا في أمور وردت إشارات لها في القرآن ، ولم يجرؤ مخلوق حتى الرسولﷺ في أن يضيف أو يحذف أو يزيد أو ينقص منه حتى ولا إشارات ، ولم يتقدم أحد من الخلق حتى الرسول ﷺ أن يدعي في نص القرآن له ، أو للخلائق أو الذين تحداهم القرآن إلى يوم الدين .

وبذلك فإن تميز كتاب الله بهذه الميزة رفعه فوق أعمال البشر وأعمال الرسل وأعمال الخلق ، كل الخلق عالمهم وجاهلهم ، أو أي صفة يحملها الخلق حتى الملائكة والجن وجاء كلام ليس من القرآن الكريم لكنه من وحي الله تعالى على رسوله ، وفي محدودية جداً فاعتبر حديثاً و لم يعتبر قرآناً وسمي بالحديث القدسي ، أوحى الله تعالى إلى نبيه فلفظه النبي وهذه الأحاديث جد محدودة قياساً للقرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وأُلحِقَ هذا الوحي بالحديث و لم يلحق بالقرآن ، وخضع لمنهج البحث العلمي حتى نقي من كل الشوائب وخرج بكمية محدودة جداً .

أما حديث الرسول ﷺ ، فهو قول آخر ، وهو مرجعية للمسلمين وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالأخذ من نبيه فهو يوحي إليه ، وكلامه المطلوب الأخذ منه فهو وحي من الله تعالى ، غير القرآن وغير الحديث القدسي ومن هذه الآيات الموجبات في هذا المقام قول الله تعالى : ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١)مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢)وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(٣)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(٤)عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦)وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى(٧)ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١)أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى(١٢)وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى(١٤)عِنْدَهَا**

جَنَّةُ الْمَأْوَى(١٥)إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى(١٦)مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(١٧)لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى(١٨)﴾ [النجم] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر : ٧] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء] .

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾ [الأحزاب] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب] .

وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٤٥)وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(٤٦)وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا(٤٧)وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا(٤٨)﴾ [الأحزاب] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٥٦)إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا(٥٧)﴾ [الأحزاب] .

ولا تقف الآيات على ما ذكر ؛ بل إنها من الكثرة والشمول الشيء الكثير ، كلها تؤكد على الأخذ بأقوال النبي ﷺ وأفعاله وإقراره ــ بعد نزول الوحي ــ باعتبارها قانوناً وشرعة ومرجعية ومنهاجاً . ولا بد من الإشارة إلى الجهد الجبار الذي بذلته طائفة من العلماء وتخصصوا بدراسة الحديث وترتيب مواقعه ومضامينه وأبوابه وفصوله ، ولقد أبدع المسلمون في مجال البحث العلمي وفروعه وضوابطه من جراء دراسة علم الحديث ، حتى وصل إلينا حديث رسول الله وأفعاله وأقواله بشكلها الصحيح ، وصورت كل ما يتعلق بالرسول ﷺ حتى كأنه يندرج بيننا .

إن حديث رسول الله ﷺ يتوافق بكلياته وجزئياته مع كتاب الله تعالى ، و لم يثبت من قريب أو بعيد أي جزء بسيط مهما كان فيه اختلاف بين القرآن الكريم والحديث الشريف . إنما هو توافق

وتفسير وتوضيح للكثير من الذي أشير إليه في القرآن ، ويعتبر الحديث الشريف التفسير الأول للقرآن الكريم وأول ما يفسر القرآن .. القرآن ، وثانية حديث رسول الله ﷺ .

هذه المرجعية الثانية التي قدرها الله تعالى لخير أمة أخرجت للناس ، تعتبر في مجالات التشريع والحقوق والتربية والعلوم والآداب والخلق والعقيدة والشريعة ، من أجَلّ ما عند المسلمين بعد كتاب الله تعالى .. ولا نريد أن نعطي من الأدلة الكثيرة التي بين أيدينا – حتى أمثلة – لأن الحديث فيها يطول ، والدخول فيها ترك للمختصين في هذه العلوم القيمة ؛ تحت مظلة البحث العلمي الذي لم نسبق إليه ، وقادنا علماؤنا إليه ليكون للعلوم الأخرى أيضاً منهجاً ودستوراً ، وتشريعاً ومنهجاً .. إن الأمة الخيرة في غيبة الوعي قد رضيت بكل بلاهة وسخف وضلال أن تستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى .. أي أنّها أرادت من اتباع أعمال البشر وترك كتاب الله وسنة نبيه ، فأذاقها الله تعالى من الذل والهوان ما تتمرغ به على غير هدى ولا كتاب منير . لكن خير أمة أخرجت للناس تحفظ قرءانها وحديث رسولها تلك المرجعية الخالدة الباقية .

إن تميز حديث رسول الله بالصدق والتثبت والتوثيق ما ناله علم قبله ؛ فقد نقي من الشوائب ومن الخلل ومن الغث ومن الدخيل . وبذلك فقد أضحى بعد كتاب الله تعالى أسمى مرجعية في مضمونه ومنطقه وعلمه وتشريعه وقانونيته . ثم إن هذا العلم لم يبق في طيات الكتب بل انتقل إلى الحفظ في الصدور والعمل في الدساتير ، والسلوك في حياة المسلمين والظاهر في سلوك المسلمين عامة ، وهو علم تفرع منه علوم ، وعلماء خلفوا علماء ، وباحثون خلفوا باحثين . ودارسون خلفوا دارسين .. في سلسلة متصلة خيرها متواصل لم ينقطع لا في زمان ولا في مكان ؛ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ليس الحديث الشريف تشريعاً فقط فهو إلى كونه كذلك فهو تربية وتشريع وآداب وعقيدة وسلوك وعلوم ومعارف ، وتاريخ ومستقبل ، فكم من الأحاديث وردت على لسان رسول الله ﷺ قد تحققت . روى إسماعيل بن رافع المدني عن ثعلبة بن صالح عن سليمان بن موسى عن معاذ بن جبل ﷺ قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فمشى قليلاً ثم قال :" يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً أو تكذب صادقاً ، أو تعصي إماماً عادلاً ، وأن تفسد في الأرض . يا معاذ اذكر الله عند كل شجر وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية " [1] .

---

(١) رواه البيهقي في كتاب الزهد، كتاب من وصايا الرسول ﷺ شرح وتعليق طه عبد الله العفيفي– الدار الذهبية – دار الاعتصام – القاهرة ١ / ١٦٥ – ١٦٦ .

وعن خير من سبق : عن أبي ذر ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبـــراهيم ؟ قال: كانت أمثالاً كلها .. أيها الملك المسلط المبتلى الغرور أني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثت لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات . فساعة يناجي بها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشـــرب ، وعلـــى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلاّ لثلاث ، تزودٍ لمعاد ، أو مَرَقةٍ لمعاش ، أو لذةٍ في غير محـــرم .. " إلخ الحديث[1] .

قال سويد الأزدي : وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنـــا عليـــه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا . فقال : " من أنتم ؟ " فقلنا : مؤمنون . فقـــال : " إن لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم ؟ وصدق إيمانكم ؟ " فقلنا : خمس عشرة خصلة ، خمســـة آمَنَّا بها ، وخمس عملنا بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية . ونحن عليها الآن فإن كرهتها تركناها .

فقال عليه السلام : " فاذكروا ما عندكم " .فقالوا : أما خمس الإيمان فهي أن نـــؤمن بـــالله وملائكته، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت .

وأما خمس العمل فهي : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورســـوله ، وأن نقـــيم الصلاة، ونؤتي الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً .

وأما خمس الجاهلية فهي : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضـــا بمـــر القضـــاء والصدق والثبات عند اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء .

ومن عظم سرور النبي ﷺ بهم وبإيمانهم النقي وفطرتهم السليمة قال لهم : " أنتم حكماء علماء فقهاء كدتم أن تكونوا أنبياء ، وأنا أزيدكم خمساً ليتم لكم عشرون إن كنتم كما تقولون ، فـــلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تتنافسوا في شيء أنتم عنه غـــداً زائلـــون ، واتقوا الله الذي إليه ترجعون،وعليه تعرضون وارغبوا فيما أنتم عليه تقدمون ، وفيه تخلدون " [2] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :" من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن ، أو يُعَلِّم من يعمل بهن ؟ ".

فقال أبو هريرة : قلت : أنا يا رسول الله فأخذ بيده فعد خمساً فقال :

- " اتق المحارم تكن أعبد الناس .

- وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . المصدر السابق ص ٢٩-٣١ انظر أيضاً ص ١٥-١٧ عن النبي يحيـــى ابن زكريا عليهما السلام .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الزهد ، والخطيب في التاريخ ، المصدر السابق ص ٢٣ / ٢٤ .

- وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً .
- وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً .
- ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب " [1] .

لقد اشتملت كتب الحديث على جميع الأبواب الشاملة للحياة عامة ، من العبادات إلى المعاملات ، إلى الأخلاق إلى الآداب إلى الفضائل ، إلى المجتمع إلى الاقتصاد إلى الحرب ، إلى السلم. وهذه التصانيف لحقت بها كتب الفقه متتبعة أقوال الرسول ﷺ في جميع حقول المعرفة الإنسانية بلا إهمال الواحدة أو تركها . وبذلك فقد اغتنت المكتبة العربية بما تركه لنا الرسول ﷺ من فنون المعرفة كلها ، لتكون مع كتاب الله تعالى المرجعية الثانية لخير أمة أخرجت للناس .

والمرجعية الثالثة : هي كل العلوم التي انبثقت من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه .. جند الله تعالى عباداً له أخذوا من الدنيا نصيباً أن عرفوا وفهموا وفسروا وقننوا وشرعوا في ظل كتاب الله وسنة نبيه ، دون الخروج على أي نص من النصوص ، وجميع هؤلاء أفنوا أعمارهم في خدمة كتاب الله جل وعلا ، وخدمة حديث الرسول ﷺ ، فكان اجتماعهم قوة ، وتفرقهم رحمة ، واجتهاداتهم فيما اجتهدوا فيه زاداً ومعرفة،ونشأت من وراء مرجعية المسلمين الأساسية الكتاب والسنة ، العلوم المختلفة .. على كثرتها،وتوزع فروعها ، وثبات أصولها،وصدق تثبتها .. وعلوم النحو والصرف والنقد،وعلوم الحديث،وعلوم الفقه،وعلوم الرجال وعلوم الأصول ، وعلوم التاريخ وعلوم الجغرافيا وعلوم الدنيا كلها من نتاج هذين الأساسين الثابتين الصحيحين .

فقيل : إن أصدق كتاب بعد كتاب الله تعالى صحيح البخاري ويلحق به كتب الصحاح ، وكتب السنن ، وكتب المسانيد وكتب المستدركات ، وكل هذا من الكنوز الخالدة الباقية للمسلمين كمرجعية ثابتة صحيحة وإن ضل الاتباع فهي خالدة خلود الدهر ، وتنطلق في كل زمان وفي رحب كل مكان ، من علماء أجلاء صادقين ، يقدمون الطيب لهذه الأمة ويتهاوى الدجالون والمندثون ولو بعد حين ، لتبرز بعض الانحرافات في نوايا غير المخلصين ، أو بعض الأخطاء في نوايا المخلصين . ولذلك فقد حددوا الحدود والتزموا بها ، واتفقوا على الأصول وعملوا بها . واتفقوا على صدق كتاب الله أولاً دون شك أو ظن ، أو أي أثر يدغدغ إيمانهم أو يلامس عقولهم فمما قالوا : إن كل كلام يؤخذ به ويترك إلاّ كلام صاحب هذا القبر مشيرين إلى قبر رسول الله ﷺ فهو الصادق الصدوق ، الثابت في كل اتجاهاته ومؤيداته وفروعه وأصوله .

---

(١) رواه الترمذي ــ المصدر السابق ص ٢٣٤ .

إن ما خرج من هذين الأصلين ليس فقط لخير أمة أخرجت للناس ؛ ولكن للبشرية جميعاً فالرسول ﷺ بعث خاتماً للأنبياء ، بشيراً ونذيراً للناس جميعاً في كل زمان وكل مكان ضمن التزام بكتاب الله ورسوله وشهد شهادة الحق ، فقد دخل في هذه الأمة الخيرية التي لم يحدها زمان ولا مكان ، ولن يحدها زمان أو مكان ، وهي باقية خالدة ثابتة ، تظهر على السطح في كثير من الأحيان ، لكن دورها قائم في الحكم وفي بناء الأمم وحركة العالم ، وحياة البشر ، فقد كتب الله تعالى لهذه الأمة الخلود بهذه المرجعيات وبإرادة الله تعالى الذي اختارها من أمم السابقين واللاحقين لتكون خير أمة أخرجت للناس .

الرمز .. الله تعالى خلق الخلق المدركة وفضلهم على جميع مخلوقاته خلق الملائكة جنده وفطرهم على الخير الذين لا يعصون ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .. خلقهم الله تعالى من نور لا يعلم أعمارهم ومساكنهم وأجسامهم وقدراتهم ووكلوا بجميع خلقه الآخرين،فهم الحفظة الكتبة على كل إنسان يحصون عليه عمره كله ومنهم رسله إلى خلقه وجنده الذين بثهم في كونه وإيمان المسلمين بهم ركن من أركان الإيمان عندهم .. والجان خلقهم من نار لا نعلم أعمارهم،ولا أشكالهم ولا تحولاتهم ؛ وهم غير مرئيين حددوا بالأرض وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها، وإذا حاولوا الخروج أو سماع ما يجري في ملك الله فوق محدوديتهم ، أرسل الله تعالى عليهم شهاباً رصداً فهم في محدودية الزمان والمكان ، منهم المؤمنون ومنهم دون ذلك وأكثرهم على الشر منطوون .

وخلق الإنسان من صلصال من فخار ، من تراب الأرض التي ارتبط بها بكل مقدماته ، وإن تجاوز حداً مهما كان صغيراً فإنه بمقدرات الأرض ومتطلبات الجسد ، إلاّ ما كان من الروح ــ فالروح من أمر ربي ــ ترك الجسد للناس ينظرونه ، ويتفكرون بأنفسهم وجعل أمر الروح منه جل وعلا . فضل الإنسان على مخلوقاته العاقلة هذه بأمور ذكرها الله تعالى لنا منها .

١- سواه بيده: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** (٢٩)﴾[الحجر] .

٢- نفخ فيه من روحه .

٣- خلقه في أحسن تقويم : ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (٤)﴾ [التين] .

٤- أمر الملائكة والجن ممثلين بإبليس أن يسجدوا له : ﴿ **إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ [الكهف :٥٠] ، ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**(٣٠)**إِلا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**(٣١)﴾ [الحجر] .

٥- علمه الأسماء كلها : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٣١) **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ**

الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)﴾ [البقرة] .

٦- كرمه على خلقه الآخرين جميعاً : **﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** [الإسراء : ٧٠] .

٧- أعطاه العقل ليفكر ويعي ، والقلب ليؤمن . ويؤمن بالغيب الذي جاءه على لسان رسله وهو الإيمان بأشياء لا تقع بحال تحت الحواس ... الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

٨- جعل حياته أنماط ومراتب ، خلقه مع أبيه آدم ثم تدرج في الخلق حتى وصل نطفة في ظهر أبيه . ثم تدرج ليكون جنيناً في بطن أمه ؛ وارتبطت به الروح بعد فترة ٤٠ يوماً من حمله ، ثم اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فولد وتدرج في عمره في الدنيا ليكسب بها الحسنات والسيئات مستخدماً حواسه وعقله وقلبه ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فعليها ، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى .. فإذا قضى الله عليه الموت فارقت الروح الجسد ، فلم يعد للجسد أية فائدة تذكر ؛ إلاّ أن يدس في التراب ، سنة الله التي تعلمها من الغراب قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل ، وانحرف البشر عن هذه السنة فمنهم من يغرق في المياه والأنهار والمحيطات ، ومنهم من يحرق الجسد ويذره في الرماد ، لكن الله تعالى يدخل الإنسان في هذه الفترة بعالم البرزخ ، في هناء شبيه بهناء الخلد وشقاء شبيه بنار جهنم ، ويأتي يوم الفصل فمن عمل صالحاً فلنفسه ويؤتى كتابه بيمينه ، ومن عمل سيئاً فلا يجزى إلاّ بإساءته ويأخذ كتابه في يساره ، فريق إلى الجنة وفريق إلى النار في دار الخلد .. علمنا الله تعالى بحال الإنسان ولا ندري إلاّ بأن الجن يشاركون الإنس الضالين في النار : **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُون (١٧٩) ﴾** [الأعراف] .

فقد عَرَّفَ الله تعالى الإنسان بمواقعه ومراتبه وتدرجاته .. هذا التفضيل لهذا المخلوق .. فضَّله الله تعالى على الجن والإنس والملائكة بالسجود له ؛ فإن محمداً خير الناس جميعاً بلا جدال .. ومع قول المكابرين والضالين والمنافقين فإن الإنسانية اعترفت تماماً وأقرت بأن خير مخلوق بين الناس كان محمداً ﷺ . وطالما أنه خير الناس فهو خير الخلق الذين سجدوا لأبيه آدم وفي معراجه ﷺ سار معه جبريل – الروح الأمين – سيد الملائكة سار به إلى ربه حتى وصل به إلى سدرة المنتهى . فتركه وقال : يا محمد هذا حدي .. اذهب إلى ربك .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨)فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩)فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى(١١)﴾ [النجم] .

فهذا النبي الكريم خير البشر ، خير المخلوقات العاقلة التي حدثنا الله تعالى عنها من الملائكة والجن والبشر فهو باختصار خير خلق الله تعالى ؛ لأن هذه المخلوقات العاقلة هي خير الخلق ، بث الله تعالى من مخلوقات في الأرض وفي السماوات العلى محمد صلى عليه الله تعالى وملائكته وأمرنا بالصلاة عليه صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله. محمد هو رمز المسلمين رمز أتباعه وجند خير أمة أخرجت للناس ؛ أو انضوى تحت ظلها البشر من مختلف الأجناس ومختلف الأشكال والأعمار على مر الزمان . رمزهم وقدوتهم وقائدهم محمد ﷺ . وليس لأمة ولا لقوم ولا لفئة اتخذت رمزاً أو عبدت إلهاً من دون الله تداني هذا الرمز العظيم ؛ الذي رباه الله وعلمه الله وحمَّله أمانة من أعظم الأمانات : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] .

حمل القرآن وبلغه للناس بكل أمانة وإخلاص ووفاء ، فكان خير الخلق قاطبة .. الذين اتخذوا من أنبيائهم رموزاً ما أخطأوا ، ولكنهم ما وصلوا إلى ما وصل إليه المسلمون .. تماماً كما لم يتمكنوا أن يكونوا خير أمة .. لأن أمة محمد هي التي فازت بشهادة الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران] .

ليس في الدنيا منذ أن ظهر محمد ﷺ اسماً فاق عدداً اسم محمد ، واليوم ليس في الدنيا اسماً أكثر عدداً من اسم محمد ، فهو في اسم كل مسلم هو أو ابنه أو أبوه أو حفيده كما أفادت الإحصائيات المهتمة بذلك . كما لم يفق أو يزيد على اسمي فاطمة ابنته ، وآمنة أمه فقد بلغتا أيضاً قصب السبق في كثرة من تسمى بهما من نساء المسلمين . رمز المسلمين محمد ﷺ ، وهذا أيضاً في رفع شأن أمة محمد ﷺ وعزها ورفعتها ، وفي الأرض قوتها التي أضاع أبناؤها هذه القوة فجعلوها في مؤخرة الأمم ؛ من حيث التحضر المدني والعسكري ، ورضوا تجزئتها ، ورضوا فرقتها ورضوا جهلها وتخلفها ، إن محمداً رمز المسلمين وقائدهم وقدوتهم صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله .

تميز أمة الإسلام :

أمة الإسلام ببنائها الرباني ، ومرجعيتها ، وصفاتها ، ورمزها ، ورفعتها تميزت تميزاً تاماً عن بقية الشعوب . وردت أخبار في التاريخ الإسلامي عن التحول الكبير في حياة الإنسان عند انتقاله

من الكفر إلى الإيمان ، وردت هذه الأخبار موثقة من الذين قالوها وعاشوها وعرفوها . كان أول مبعوث للدعوة في المدينة بعد بيعة العقبة الأولى الصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي باشر الدعوة بين الأنصار .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقيب ، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال له بئر مرق ، فجلسا في حائط ، واجتمع إليهم رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه . فلما سمعا به قال سعد لأسيد : لا أباً لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً .

قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما .. فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه .. قال مصعب : إن يجلس أكلمه . قال : فوقف عليهما متشتماً فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، وقال موسى بن عقبة : فقال له غلام : أتيتنا في دارنا بهذا الوعيد [1] الغريب الطريد ليتسفه ضعفاءنا بالباطل ، ويدعوهم إليه .

قال ابن إسحاق : فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع .. ؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت ، قال : ثم ركز حربته وجلس إليهما . فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقال فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ـ سعد بن معاذ ـ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم .. فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .. فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فوا الله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما .. فقالا:

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٢ / ٦٩ .

نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وأنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك . قال : فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر من بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده،ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما سعد وتكررت قصة أسيد ابن حضير مع سعد بن معاذ .. فلما عاد سعد إلى نادي قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم . . لكن أسيد دفع سعداً إلى الإسلام ، أما سعد فقد دفع قومه جميعاً إذ عاد إليهم فقال : يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله،قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً ومسلمة [1].

المقصود من ذكر هذه الحادثة .. هو أن الإسلام يغير ملامح الوجه ، ويجعلها سمحة طيبة .. فقد ذكر أن القوم حلفوا أن كلا الرجلين قد عادا إليهم بغير الوجه الذي ذهبا به تغير عجيب بين الكفر والإيمان ، على الرغم من أن تاريخ الرجلين قبل الإسلام كانا سمحين ، فطنين ، طيبي السريرة والقلب .

إن المسلم أولاً تميز بشكله ووجهه ، والإيمان والإسلام يضيفان على المؤمن سمحة حلوة مريحة طيبة .. وأجمل وصف ورد في كتاب الله عز وجل للمؤمنين كأشخاص فقال ووصف المؤمنين جميعاً بصفات كثيرة رائعة منها : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٢) ﴾ [الأنفال] .

﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** (١٨) ﴾ [الفتح] .

ومن تلك الأوصاف التي اختص بها المسلمون قول الله تعالى :﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** (٢٩)﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**(١٠) ﴾ [الحجرات] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ــ ابن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤ ، ٢ / ٥٢٨ - تحقيق جميل العطار ، إصدار دار الفكر - للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت ط١ ١٩٩٦م .

إن تميز المسلمين عن سواهم من الأمم جاء في كتاب الله تعالى الذين شكلوا خير أمة أخرجت للناس كما وردت على لسان النبي ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة ، بأوصاف كلها في جانب الخير والفلاح والعمل الصالح ، وقد أنب الله تعالى الذين يتهاونون في أمور دينهم ووعدهم بالويل ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢)وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣)فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤)الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ(٥)الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ(٦)وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧)﴾ [الماعون] .

وفي سور وآيات أخرى كلها مدحت المسلمين وميزتهم عن سواهم من حلق الله : قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ(١)الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ(٢)يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣)كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ(٤)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ(٥)نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ(٦)الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ(٧)إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ(٨)فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ(٩)﴾ [الهمزة] .

قال تعالى : ﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ(٦٧)يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨)الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩)ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠)﴾ [الزخرف] .

وقال تعالى يصف المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] .

وجاءت أوصاف الله تعالى لغير المؤمنين من الذين سبقوا من أهل الكتاب ، الذين لم يستحقوا الخيرية فمنهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .

قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ(١٤٦)وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٤٧)﴾ [الأعراف] .

وأحل الله تعالى للمؤمنين كلّ طيب وحرم عليهم كل خبيث،ورسم العلاقة بينهم وبين أهل الكتاب الذين سبقوا وضلوا وانحرفوا،وبالحدود التي تتماشى مع الطيب الذي أراده الله تعالى لأمة الإسلام،ولتكون متميزة عن هؤلاء .. فقد جعل بين المسلمين وبين أهل الكتاب علاقات محددة لكنه جل وعلا قطعها مع الذين كفروا وصدوا عن ذكر الله. صدر سورة المائدة تشتمل هذه

الأمور لبناء أمة التوحيد قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ(١)يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢)حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣)يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥)﴾ [المائدة] .

وقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨)وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ(٩)﴾ [المائدة] .

بهذه المحرمات وما أحل الله تعالى للمؤمنين وبتلك العلاقة المتناهية اللطف والحساسية صور الله تعالى تلك الأمة ، وميزها عن سائر أمم الأرض وهي الأمة الخاتمة التي أرادها الله تعالى للبشرية .. أمَّا من حاد عن جادة الصواب ، أو من ضل عن هدى الله .. والذين كفروا أو أشركوا ، أو اتخذوا آلهة من دون الله فإن الله تعالى قد وعدهم في الدنيا وعوداً ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم].

والقائلون إن أمة الإسلام لا تتميز عن غيرها من الأمم فهي مثل بقية الأمم باللباس والعمران والطعام وسبل الحياة الأخرى ، أي أن أمة الإسلام قد ذابت في عادات وتقاليد الأمم الأخرى ، واقتبس المسلمون الكثير من غيرهم ، وفقدوا الكثير من قيمهم وعاداتهم والتزامهم بأوامر دينهم ، وأصبحوا كالأمم الأخرى في رفع قيم المادة والدنيا ، والبعد عن قيم الروح والآخرة وهذا ما تميز به المسلمون عن سواهم خلال الأحقاب الطويلة من تاريخهم .. وينظر هؤلاء إلى ملامسة المدنية

الحديثة سكان المدن الإسلامية الكبيرة ، فأفقدها الكثير الكثير مما كانت فيه .. وخرج من عالم المسلمين أناس وشعوب حاولت أن تنسى ذلك الانتماء .. إن هذه مغالطة يحاول أن يظهر فيها أولئك أن الإسلام إلى زوال.. لكن المتتبع لكل هذه الطرق ، وهذه التأثيرات ، وهذا الذوبان في حياة الآخرين .. فإن المسلمين مازالوا يحافظون على فضائلهم وقيمهم في بلادهم وخارجها .. وهذه أمثلة الذين هاجروا إلى بلاد الغرب أو عاشوا بين الصينيين والهنود .. فإنهم متميزون بكل معطيات حياتهم وقيمهم ، وإذا غاب ذلك في أشخاص أو حتى أجيال .. فإن الإسلام مازال يعتبر المحرك الأول لكل أحاسيس المسلمين وانتماءاتهم ..

إن تميز أمة الإسلام في أول نشوئها عن مجوسية الفرس ، ونصرانية الروم ، وشرك الهنود والصينيين ، أعطتهم ذاك التفوق الحضاري ، والتميز الحضاري الذي يعتبر بحق تميزا بالمعتقد تميزا بالسلوك ، تميزا بالقيم وتميزا بالحلال والحرام .. وإذا وجد من تجاوز هذه القيم وأخذ بقيم المدنية الحديثة فشربوا الخمر ، وزنوا وأكلوا الخنزير ، وهجروا دينهم ، فإنهم هم أنفسهم غالباً فقط وتأتي من ذراريهم بعد ذلك من يعود إلى أن يتبع الهدى ويتخلى عن الضلال .. وتجربة حديثة الآن في الدول العلمانية التي اتخذت الإلحاد والعلمانية والأيدلوجيات الأخرى ، قد تجاوزها أجيال لاحقة لتدخل في دين الله أفواجاً .. هذه تركيا .. وهذه الأجيال من أبناء المسلمين الذين توالدوا في أحضان الحضارة المدنية المادية الحديثة ، وكذلك أولئك الذين يعيشون أقليات في عالم الشرك والضلال والانحراف .. إن أمة الإسلام " خير أمة أخرجت للناس – وللناس قاطبة – " ما زالت في أصولها ، تتميز تماماً عن شعوب الأرض قاطبة ، فالنفس المسلمة المتسمة بالإيمان والحب والسماحة، والرضا بقضاء الله وقدره وحسن التعامل والصبر .. كلها صفات إن وجدت في الآخرين فهي استثناء ؛ ووجودها في المسلمين " الأصل " . وكذلك إن بادت هذه الصفات بين المسلمين فهي " استثناء " وإن كانت في غير المسلمين من الأمم فهي الأساس .

– الإيمان الذي يملأ قلوب المسلمين بالله تعالى والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، والإسلام الذي يمارسه المسلمون من شهادة وصلاة وزكاة وحج وصيام ؛ فإن جميع هذه الأمور تمنع عن القيم الهزيلة الحيوانية . ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت :٤٥] ، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)**﴾ [النحل] ويتلو هذه الآيات آيات أخرى تحض على حسن الخلق وحسن التعامل والبعد عن السوء والفحشاء .